حاجى بابا اصفهانى

للكاتب الانجليزى "جمز موير"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الثالث عشر

حاجى بابا يسافر من مشهد

عند ما خرجنا من مشهد نظرت إليها ورفعت وجهى إلى السماء ودعوت الله أن ينزل غضبه على تلك المدينة ، ولم يسمعنى وأنا أدعو هذا الدعاء غير الدرويش صفر ، وقد كان يشاركنى شعورى نحوها . ولكن لو أن رجلاً آخر سمعنى أفوه به ، لكان هذا اليوم أسوأ يوم فى حياتى . وقال لى الدرويش : « أنت لا تزال صغيراً يا بنى وستعانى فى الحياة آلاماً كثيرة قبل أن تستفيد من التجاريب ماهو ضرورى لك فى الحياة . لا تشك من الصدمة الأولى فربما كان فى شدتها وقاية لك من صدمات كثيرة ، وستستطيع فى المستقبل أن تتجنب المحتسب حتى ولو كان متنكراً فى ثياب امرأة ، ولكن رجلا فى مثل عمرى (وأشار إلى الشيب فى لحيته) يؤلمه أشد الألم بعد ما استفاد من التجاريب أن يضطر إلى مغادرة مدينته ويعاود الأسفار خوفاً من حلول نكبة به »

قلت : « ولكن كان فى وسعك أن تبقى فى مشهد غير مبال بالعلماء مادمت محافظاً على الصلاة والصوم »

فقال الدرويش : « هذا صحيح، ولكن شهر رمضان قد اقترب وهم يراقبوننى فيه أشد مراقبة لأنهم يتربصون بى، ولست أستطيع ولا أريد أن أصوم لأن التدخين ضرورى عندى ، ولذلك أحب الأسفار فى هذا الشهر لأن الافطار فيه مسموح به فى الدين ، وقد يكون فى الامكان أن أرائيهم كما فعلت ذلك مراراً وأتظاهر بالصوم وأفطر فى السر ولكن ذلك يكون صعباً على من بلغ من الشهرة ما بلغته الآن وأصبح من الأمور العادية أن يتردد لزيارته عشرات من الناس فى كل ساعة من ساعات النهار ليتبركوا به »

وصلنا إلى مدينة سليمان دون أن يحدث حادث هام سوى أننى فى اليوم الأخير من مسافة السفر ساعدت صاحبى على خاطر على نقل متاجره المحمولة على البغال فجرح ظهرى فى الموضع الذى أصبت به يوم حدوث الحادث الذى تركت من أجله السقاية

وكان ألمى شديداً فلم أستطع الاستمرار فى السفر مع القافلة وصممت على البقاء حيث كنت حتى يتم لى الشفاء ، وكان قد زال خطر التركمان لابتعاد هذا المكان عن جهات هجومهم ، ولم أعد فى حاجة إلى حماية القافلة . وقد كان يجمل بالدرويش صفر أن يبقى معى ولكن شوقه كان شديداً إلى نبيذ العاصمة وملاهيها فتركنى واستمر مع القافلة

كان المكان الذى تخلفت فيه عن القافلة عند المقابر، فذهبت إليها وأعلنت قدومى كعادة الدراويش بصيحات مزعجة صحتها بهذا النداء : « هاك هو ! هاك هو ! » أى الله أكبر الله أكبر ، واستعددت لابداء ضروب الرياء والخداع إذا قابلت أى إنسان وفقاً للتعليمات التى تلقيتها من الدراويش

وفى أثناء مرضى وإقامتى بالمقابر زارنى عدد من النساء فكتبت أحجبة وأخذت منهن مقادير وافرة من الفاكهة واللبن والعسل . ولما اشتد الجرح اضطررت إلى السؤال عما إذا كان فى مدينة سليمان من يستطيع علاجى؛ ولم يكن فى تلك المدينة من يعرف شيئاً من شئون الطب غير الحلاق والبيطار، فالحلاقون يعرفون الحجامة وخلع الأسنان ، وأما البيطريون فيعرفون أمراض الخيل ومنها ما يشترك فيه الناس فيستشارون فى الجراح وجبر العظام وغير ذلك

وكان فى المدينة غير حلاقها وبيطارها امرأة عجوز تدعى لعلاج مايعجزان عنه من الأمراض. وقد استدعيت كلاً من هؤلاء الثلاثة فاتفقت كلمتهم على أن لا وسيلة للعلاج غير الكى بالنار . ولما كان البيطار أكثرهم مراناً على أداء هذه العملية فقد اخترته لاجرائها، فجاء بمقدار من الفحم وبحديدتين وأوقد ناره وأحمى الحديدتين حتى احمر لونهما ثم كوانى فى ثلاثة عشر موضعاً من ظهري

ومضت مدة قبل أن تشفى الجراح الأولى والجراح التى أنشأها الكى الذى لم يكن شفائى بسببه بل بسبب الراحة الطويلة

ولما شفيت عزمت على أن أستأنف رحلتى إلى طهران التى لم أشأ أن يكون المرض ملازماً فى بدء عهدى بها، ودخلت المدينة فى ساعة الظهيرة وأعلنت قدومى إليها بالنداء المعتاد فى وسط السوق فاجتمعت حولى الجموع، فلما رأيت كثرة عددهم حدثتنى نفسي بأن أقص عليهم قصة أستدر بها جيوبهم كما تعلمت من أحد الدراويش وراجعت ذاكرتى فتذكرت قصة جميلة وبدأت أسردها عليهم وأعينهم مرفوعة وأفواههم مفتوحة ، فقلت :

« كان فى عهد هرون الرشيد رجل حلاق بمدينة بغداد يدعى « على السقا » وقد اشتهر هذا الرجل بخفة يده وإتقانه صناعته وسرعته حتى إنه كان يحلق الرأس واللحية فى طرفة عين دون أن يسيل قطرة من الدم . وكان كل وجهاء بغداد يحلقون عنده، وقد وصل به الكبر والغرور إلى حد الامتناع عن الحلاقة لمن لم تكن لديه رتبة أو لقب وكان يشترى الأخشاب ويبيعها لزبائنه .

وفى يوم من الأيام جاءه أحد البعاة ومعه أخشاب على ظهر حمار فاتفق معه الحلاق على مبلغ معين فى مقابل (كل ما على ظهر حماره) فلما سلم البائع تلك الأخشاب طالبه الحلاق بالسرج الذى على ظهر الحمار وبالبرذعة لأن الاتفاق كان يشمل « كل ماعلى ظهر الحمار» فدهش البائع وقال: « كيف؟ هل سمعت فى حياتك صفقة مثل هذه ؟ إن هذا مستحيل »

وبعد مشادة حدثت بينهما أخذ الحلاق السرج والبرذعة والخشب وترك البائع يفعل ما بداله، فذهب إلى القاضى ، وكان القاضى من أصحاب الحلاق فحكم له، فاستأنف البائع الحكم إلى قاض آخر أخذ كذلك بنص الاتفاق وصادق على الحكم الأول فلم يسع البائع المسكين إلا أن يرفع أمره إلى المفتى نفسه، فلما لم ينصفه أيضاً كتب شكواه ووقف فى طريق الخليفة وهو ذاهب إلى المسجد فى يوم الجمعة .

وكان الخليفة مشهوراً بعنايته بقراءة العرائض بالمسجد بعد الصلاة والفصل فيما يستحق النظر منها .

ولم تمض ساعة بعد الصلاة حتى دعى بائع الخشب إلى حضرة الخليفة فدخل وقبل الأرض ودعا له، فقال الخليفة: « لقد قرأت شكواك وفهمتها

وإن الألفاظ فى جانب خصمك والعدالة فى جانبك . والقانون يجب أن يحدد بالألفاظ، والاتفاقيات وهى قوانين الخصوم يجب أن تحدد بالألفاظ كذلك. ولهذا السبب يجب أن ينفذ الاتفاق بألفاظه وإلا لما كانت له قيمة ولا أمكن الاحتفاظ بالثقة بين الناس، لذلك سيأخذ الحلاق البرذعة والسرج والخشب ولكن .. »
ثم استدعى البائع وهمس فى أذنه بكلمات فبدت على وجهه علائم الرضى وخرج وهو مسرور »

هنا بدا الاهتمام على وجوه السامعين فسكتُّ وهم ينتظرون أن أتكلم. ولما طال سكوتى طالبونى باتمام الحديث فقلت لهم : إننى لا أتم القصة إلا إذا دفع لى كل منهم قطعة من النقود . فدفعوها وقلت: « قال الخليفة همساً لبائع الأخشاب : « إذهب إلى الحلاق واتبع معه الطريقة التى سأذكرها لك ومتى رجع الأمر إلىّ فانى سأنصفك » ثم علمه الطريقة فخرج البائع راضياً

وبعد أيام ذهب إلى الحلاق بحالة من الود تدل على أنه لم يكن بينهما أى خلاف وعلى أنه رضى واقتنع بحكم القضاء فى النزاع الذى كان بينهما

واتفق البائع مع الحلاق على أن يحلق له ولزميله الذى سيأتى بعد قليل فى مقابل مبلغ تراضيا عليه، فوافق الحلاق وبدأ يحلق للبائع، ثم سأله عن زميله فذهب وعاد ساحباً حماره وقال : إن هذا هو الزميل الذى يجب أن يحلق له وفقاً للاتفاق

اغتاظ الحلاق وامتنع عن الوفاء بتعهده قائلا : إن هذه خدعة . وقال : « أليس يكفيك أن أضع يدى على رأسك القذر حتى أحلق لحمارك أيضاً ؟ إننى لم أحلق قط لأمثالك وما حلقت لك إلا لمصالحتك إياى بعد القضية التى كانت بيننا . اذهب من هنا وإلا أذقتك الأمرّين »

فذهب البائع مغتاظاً إلى الخليفة ورفع أمره إليه ، فأمر الخليفة باحضار الحلاق وقال له فى جمع حاشد : « ألم تتفق معه على أن تحلق له ولزميله ؟ »

قال الحلاق : « نعم ولكن هل فى الدنيا من يزامل حماراً ؟ »

قال الخليفة : « وهل فى الدنيا من يشترى خشباً وبرذعة ؟ إحلق للحمار أمام هذا الجمع تنفيذاً لاتفاقك وإلا أودعتك السجن »

فاضطر الحلاق إلى الاذعان ، وأمر الخليفة بأن يؤتى له بالمواسى وبالصابون والماء ، وبدأ الحلاق يغسل شعر الحمار ويحلق له بحضور الخليفة وحاشيته

وكان الناس يسرون به ويضحكون منه ، ثم صار كل أهل بغداد يتحدثون بهذه القصة الدالة على ذكاء الخليفة وعدالته

الفصل الرابع عشر

الرجل الذى قابله حاجى بابا

تركت مدينة سليمان وأنا مسرور وقد شفيت جراحى وكنت لا أزال صغير السن جميلا وكان معى عشرون « طومانا » ادخرتها فى مشهد

وكنت إلى ذلك العهد قد جربت بعض التجاريب التى تنفعنى فى الحياة وعزمت على أن أنزع ثياب الدراويش بمجرد وصولى إلى طهران وأن ألبس ثياباً جميلة وأعيش معيشة راقية

وكنت فى أثناء الطريق أنشد بأعلى صوتى قصائد المجنون فى ليلى فقابلنى أحد السماة ونشأت بينى وبينه مودة فتحادثنا وقدم لى بعض ما كان معه من

القافلة فقبلت مسروراً لأن الحر كان شديداً فى ذلك اليوم .

وكنا نسير على شاطىء نهر وبالقرب منا مزارع قمح فنزع الساعى لجام الفرس وتركه يأكل من القمح الجديد ثم أخرج من جرابه طعاماً ودعانى إلى مشاركته فيه وكان هذا الطعام أرزاً بارداً وخبزاً فأكلنا بشهوة قوية ، ثم أخرج من هذا الجراب الذى فيه حذاؤه فجلاً وبصلاً فأتممنا غداءنا وغسلنا أيدينا فى النهر . ثم قدم لى لفافة من التبغ وأخذ كل منا يسائل الآخر عن رحلاته السالفة ، وعرف من شكل ثيابى أننى درويش ، فسألنى عن تاريخ حياتى وقصصته عليه، ثم قص على تاريخ حياته وقال إنه ساع عند حاكم مدينة « استراباد » وأخبرنى خبراً سرنى وأدهشنى وهو أن عسكر خان شاعر الشاه قد نجا من أسر التركمان ونزل ضيفاً عند هذا الحاكم

ولم أشأ أن أظهر له شيئاً من سروري وأن أخبره بأنى أعرف هذا الشاعر لأن تجربتى فى الحياة دلتنى على أن كتمان السر من الضروريات لمن يريد النجاح . وأخبرنى الساعى بأن الشاعر أرسله إلى طهران برسائل وقال إنه شديد الشوق إلى معرفة ما فيها وإنه لا يعرف القراءة والكتابة وإنه مسرور للقائى لكى أقرأها له، وأخرج من صدره تلك الرسائل

ولما كانت العادة فى بلاد فارس أن تطوى الرسائل على شكل مثلثات كالأحجبة ولا توضع فى مظاريف بل يكتفى بثنى جزء منها ووضعه بين طياتها بحيث يسهل فتحها وإعادتها إلى ما كانت عليه دون أن يظهر أنها فتحت — فقد سررت مما عرضه على وفتحت الرسائل لأعرف أخبار صاحبى الشاعر

وكانت أول رسالة منها إلى الشاه الذى دعاه شاعره باسم ملك الملوك وضمن رسالته إليه وصف الآلام التى تكبدها من معاملة التركمان ومن الجوع والظمأ والذل ، قائلا : إن ذلك كله لم يكن شيئاً يذكر بجانب ألمه للبعد عن جلالته وحرمانه التشرف بخدمته . وقال : إن حياته تستمد النور والحرارة من رحمة الشاه ومن قربه، وإن أكبر أمل لديه هو أن يعاد إلى منصبه الذى كان غيابه عنه على الرغم منه وإنه يريد أن يعود إلى التغريد فى قصره كما يتغنى البلبل للورد

وكانت الرسالة الثانية لرئيس الوزارة الشرس الأخلاق المشوه الخلقة ، ولكن الشاعر وصفه بأنه كوكب ساطع بين نجوم السماء ، وبأنه روح البلاد وعمار مجدها . وكانت الرسالة الثالثة بهذا المعنى لعدوه القديم وزير المالية

أما باقى الرسائل فمنها واحدة لزوجته يتكلم فيها عن شئونهما الداخلية وعن نواياه فى المستقبل ويوصيها بأن تقتصد فى ملابسها وأن تعنى برقابة الخدم والعبيد وبأن تعد له ثياباً جديدة . ومن هذه الرسائل أيضاً رسالة إلى مربى أبنائه يحييه فيها ويرجو أن يكون قد علمهم الشعائر والتقاليد ومبادئ الدين وعودهم المواظبة على الصلاة فى مواعيدها ومرنهم على استعمال الرماح وإصابة الهدف وهم راكضون على ظهور الجياد

وكانت الرسالة الأخيرة إلى وكيل أعماله وهو يوصيه فيها بالاقتصاد الشديد وأن يذهب كل يوم إلى قصر رئيس الوزارة فيطيل من الدعاء له وشكره لأنه لولا عنايته وهيبته فى البلاد لما أطلق التركمان أسيرهم، ويوصيه أيضاً بأن يكون شديد العناية بأعماله

وبأن يصحب زوجته فى عدواتها وروحاتها وبأن يكون مطيعاً لما تأمره به وبأن يتشدد فى مراقبة العبيد والخدم عموماً ويخص الرقيق جوهراً فاذا رابته منه علاقة باحدى الجوارى جلده وجلدها معه . وأمره بمنع العجائز اللواتى يخشى منهن دس الدسائس — وبخاصة اليهوديات — من الدخول منزله . وبأمره أخيراً بأن يدفع جائزة لمن يحمل هذه الرسالة لتكون بمثابة البشرى لنجاته من الأسر .

طويت هذه الرسائل وأعدتها إلى الساعى الذى ظهر على وجهه البشر لما جاء فى الرسالة الأخيرة ، وقال إنه تعب كثيراً وخشى أن يأتى متأخراً فصار يقضى أيامه ولياليه ركضاً بجواده حتى أتعبه واضطر إلى تركه فى إحدى البلاد التى مرّ بها على أن يرسل إليه بعد شفائه واغتصب الجواد الذى هو راكب عليه الآن من أحد الفلاحين .

وبعد أن سرنا مسافة أخرى أدرك صاحبي التعب فربط جواده ونام ونظرت إليه وهو مستلق على الحشيش وحدثتنى نفسى بأن أسرق منه رسالة الشاعر إلى وكيله وأذهب بها . ولما كنت عارفاً كل المعرفة بحياة الشاعر وزاملته فى الأسر مدة طويلة فانى بغير شك أولى من هذا الساعى بأداء رسالته ، ولو كنت مع الشاعر عند ما نجا ما أرسل غيرى ليؤديها وأنا أحق كذلك بالجائزة التى تدفع من أموال رجل خدمته وكنت مستعداً للتضحية من أجله بالشىء الكثير لو سنحت لى فرصة لهذه التضحية . أما الجواد فليس حق الساعى فيه أكبر من حقى

وفى غير مشقة كبيرة أخذت تلك الرسالة وركبت الجواد وركضت به جاعلا كل همى أن أسرع حتى لا يلحق بى الساعى إما على ظهر جواده الذى قال إنه سيرسل إليه وإما على ظهر جواد آخر يغتصبه وقلت فى نفسى : إننى إذا سبقته بمسيرة يوم فانى آمن من شره ، وعزمت على أن أبيع الجواد ساعة وصولى إلى طهران — وعلى أن أبدل ثيابى فى الحال فلا يجد الساعى إذا وصل أى دليل ضدى ولا يجد من يصدقه إذا زعم أنى كنت درويشاً وأنى سرقت منه رسائل وجواداً . بل إنه من الصعب أن يعرفنى بعد إبدال ثيابى فى تلك المدينة

وحصرت تفكيري عند ما وصلت إلى المدينة فى الكيفية التى أقابل بها أهل الشاعر وفى الكلام الذى أقوله لهم

الفصل الخامس عشر

مراحى بابا فى بيت الشاعر

دخلت المدينة فى ساعة الصباح من باب الشاه عبد العظيم وكان هذا الباب قد فتح لوقته وحينه . وذهبت تواً إلى سوق الخيل وهو أقرب مكان إلى هذا السوق وهو يعقد يومياً لبيع الخيل

وكنت أعتقد أن جوادى حسن جداً وأنه سيباع بثمن غال لأن تجربتى إياه فى أثناء الطريق دلتنى على أنه ليس به عيب : ولكن تاجراً من تجار الخيل فى ذلك السوق أكد لى أنه ملىء بالعيوب وأننى أكون سعيد الحظ إذا تخلصت منه فى مقابل أى مبلغ من المال . وعرض على خمسة طومانات ثمناً . فدهشت لأنى ما كنت أنتظر بعد وصفه المتقدم أن يعرض كل هذا الثمن

ودهش التاجر أيضاً لتسليمى بقوله وقبولى أول مبلغ عرضه .

ولما طلبت إليه أن ينقدنى المال أخذ الجواد

ودفع لى نصف الثمن وعرض على حماراً بالنصف الباقى فأبيت، فقال إنه سيدفع لى باقى الثمن عند ما أقابله لأول مرة . ولم يكن لدى متسع من الوقت للمساومة . وكان غرضى الأول هو التخلص من الجواد فتركته له وأخـذت ما دفعه وكتبت اسمه عندى واتفقت معه على المكان والزمان اللذين أقابله فيهما لآخذ الباقي من ثمن جوادى وأنا أنوى ألا أعود إلى مقابلته وهو ينوى ألا يدفع لى شيئاً

ثم ذهبت إلى سوق الثياب فاشتريت (قفطاناً وجبة وعباءة سوداء) ولبست ذلك فى نفس السوق وخلعت ما كان على من ثياب الدراويش. وقد كلفتنى هذه الثياب الجديدة مبلغاً كبيراً لأنى اضطررت إلى شراء أشياء أخري من مستلزمات هذا الزى كالعمامة والحزام، ثم سألت عن منزل الشاعر

كان هذا المنزل فى حى من المدينة محوط بأشجار الرمان يدل شكله دلالة واضحة على بعد صاحبه

كان أحد مصراعى بابه مفتوحا والآخر مغلقا وظهر لى أن عدد المقيمين فيه قليل جداً وأن الجائزة ستكون قليلة أو أننى لن أنالها

صعدت السلم حتى وصلت إلى الطبقة الثانيـة فوجدت رجلا فى سن الخمسين يدخن فى النغليون وظهر لى أنه الرجل الذى كنت أريد مقابلته وهو وكيل أعمال الشاعر وناظر زراعته

وصحت عند ما رأيته : « بشرى ! عسكر خان سيأتى »

فنظر لى الرجل نظرة اندهاش وقال : « ماذا تعنى ؟ أى خانٍ ومتى ومن أين ؟ » فقلت له : إنى رسول من قبله. وقدمت له الخطاب فبدا على الرجل فرح متصنع وحزن حقيقى ودهشة وقال لى : « ولكن هل أنت واثق من أنه لا يزال على قيد الحياة ؟ »

قلت : « لاشك فى ذلك وأنا آت من عنده وسيأتيكم فى الغد رسول آخر من لدنه وسيكون معه رسائل أخرى باسم الملك والوزراء وغيرهم »

فقال الرجل مخاطباً نفسه : « هذا عجيب ! هذا مدهش ! ما هذا الخبر الذى وقع على رؤوسنا ؟ أين الذهب ؟ ماذا أفعل ؟ »

ولما ملك الرجل روعه حاول إفهامى سبب اضطرابه فقال : « إن كل إنسان يقول إنه قد مات ويجب أن يكون ميتاً فلقد رأت زوجته فى النوم أن ضرسها سقط من فمها وأنها تتألم لذلك أشد الألم . وهذا أكبر دليل على أن زوجها قد مات ... إنه غير حى ويجب ألا يكون حياً »

قلت : « ظن كما تشاء فان الرجل موجود الآن فى استراباد ولن تمضى ستة أيام حتى يصل إلى هذه المدينة وتريكم شخصه

سكت الناظر وظل واجماً لايعرف بماذا يجيب وقال : « لايدهشك اضطرابى ودهشتى عند ماعلمت بأن سيدى القديم لم يمت ، فان خبر موته لما شاع فى هذه المدينة أخذ الشاه أملاكه وأمواله وأرقاءه وأثاث بيته وأعطى ذلك كله « لخور على ميرزا » وهو أصغر الأمراء من أبناء الشاه ، أما ضيعته فهى الآن مملوكة لرئيس الوزراء ، وأما قصره فهو لميرزا فاضل ، ولم يبق غير هذا المنزل لزوجته التى تزوجت من معلم أبنائه، فقل لى هل لى أن أضطرب من هذا الخبر الذى تزعم أنك تبشرنى به أم لا ؟ »

قلت : « نعم لك أن تضطرب وتحار ، ولكن ماذا يكون من أمر الجائزة التي أشير إليها فى هذا الخطاب ؟ »

فقال الناظر : « لا تنتظر مني أى شيء فأنت لم تأتنى بخبر سار ، ولكن إذا شئت فاصبر حتى يأتى السيد الجديد »

قلت : « إننى سأعود فى يوم آخر وخرجت من المنزل وأنا مستغرق فى تأملاتى

الفصل السادس عشر

مراجى بابا يفكر فى المستقبل ويدخل فى معركة

عزمت على أن أنتظر عودة الشاه وأن أحصل بوساطته على منصب فى الحكومة فأكتسب من هذا الوجه الشريف رزقى ويكون أمامى مجال واسع للترقى والظهور فى ميدان الحياة بغير وسائل الغش والتدليس التى علمتنيها تجاربى السالفة لأننى قد سئمت من الاختلاط بالطبقة الدنيا ومن معاشرة الرعاع وطمحت نفسى إلى الرقى والغنى والجاه ولم أجد فى ضمة أصلى وحقارة نشأتى ما يمنع من وصولى إلى رياسة الوزارة وقلت فى نفسى: « ماذا كان إسماعيل بك تللى (أى الذهبى) أقرب المقربين إلى الشاه ؟ إنه لم يكن إلا فراشاً وضيعاً وليس أكثر منى علماً ولا أفصح لساناً ، وهو قد اشتهر بركوب الخيل ولكنه لو وقع فى أسر التركمان كما وقعت فى أسرهم لانضحت حقيقة هذه الشهرة وتبين أننى خير منه فى ذلك أيضاً . وقلت : ومن هو وزير المالية الذى يوزع أموال الدولة على أصحاب الشاه ولا ينسى نفسه ؟ إنه ابن بدال وأنا ابن حلاق فليس يفضل أبوه أبى ، وأنا أفضل من معاليه لأنى أعرف القراءة والكتابة ومعاليه لا يعرفها . وهو يأكل ويشرب كما يشاء ويلبس كما يقولون حلة جديدة فى كل يوم ويختار للهوه أجمل النساء ، ولكنه مع ذلك لم ينل نصف كفاياتى ومواهبى وهو كما يلقبه جميع الفارسيين (خور بالتشديد) أى (حمار بتوكيد اللفظ)

اندفعت فى تيار هذه التأملات وأنا فى وسط الطريق المؤدى إلى القصر وظهرى مستند إلى الحائط وقد غلت برأسى حرارة الفكر فرأيت نفسى فى الخيال وقد بلغت ما أرجوه من العظمة وحالت رؤيتى ذلك الجلال دون رؤية المخلوقات الوضيعة التى تسير فى الطريق وأخذ الطريق يزدحم شيئاً فشيئاً فاضطرتنى الجماهير بضجتها وجلبتها إلى الالتفات إليها وأخذت أدفعها عنى بكبرياء ، ونظرت إلى الناس نظرة احتقار وزراية ، ودهش الناس من معاملتى إياهم هذه المعاملة فأخذ البعض يضحك والبعض يسخر ، وعنفنى القليل منهم ، وحسبنى أكثرهم مجنوناً . ولما رجعت إلى نفسى بعد ذلك عذرت من اتهمنى هذه التهمة لأن ثيابى وإن كانت جديدة فهى لا تفضل فى نوعها ثياب أدنى الطبقات ، فابتسمت من ظهورى بمظهر العظمة ، وسرت إلى السوق لأبدل تلك الثياب بثياب أرق منها لكى أظهر بمظهر يتفق مع الأمل الذى أرجوه

وبينما كنت أشق لنفسى طريقاً بين الزحام إذ رأيت ثلاثة يتشاجرون ورأيت الناس مزدحمين حولهم ففرقت بعضهم لأفض النزاع إن استطعت ولكن لسوء حظى وجدتهم الساعى الذى سرقت منه الجواد ، والتاجر الذى بعته له ، والفلاح وهو صاحبه الأول

قال الفلاح : « هذا جوادى »

وقال الساعى : « هذا سرجى ولجامى »

وقال التاجر : « أنا المالك وحدى »

ورأيت الخطر الذى يحدق بى ففكرت فى النجاة

ولكن نظر التاجر وقع على فصاح : « هذا هو الرجل الذي اشتريت منه الجواد »

ولما رآني الساعي انقض عليّ كما ينقض الوحش على فريسته ووصفني بأنني غادر وأنني لص وأنني وغد

قال لي الفلاح : « هات جوادي »

وقال الساعي : « هات سرجي ولجامي »

وقال لي التاجر : « هات مالي »

وقال الجمهور : « خذوه إلى القاضي »

وعبثاً حاولت أن أقنع الجمهور بأنني بريء ، وعبثاً حاولت أن أطلب الرحمة أو أجد من ينصت إلى ما أقول وصرت أصيح مخاطباً الساعي : « لماذا تغضب ؟ هذا سرجك ولجامك سليمين فخذهما »

وقلت للفلاح : « ولماذا تغضب أنت ؟ هذا جوادك لم يمت ولم يصب بسوء فخذه واحمد الله إذ لم يحدث له ما يفجعك به »

وقلت للتاجر : « ولماذا تغضب أنت ؟ إنك لم تدفع لي إلا نصف ثمن الجواد وكنت تريد أن تغشني وتعطيني حماراً أعرج بالنصف الباقي من الثمن »

وعرضت عليه أن أرد ما أخذته منه ولكنه رفض وأصر على أن أدفع للرجلين الآخرين ما يسكتهما ليصير الجواد ملكه

ولما لم يقبل ما عرضته عليه من أوجه الحلول اتفقت كلمتنا على الذهاب إلى مأمور البوليس وتحكيمه وقد وجدناه في السوق محاطا بجنوده وفي يده عصاه الطويلة المستعدة لضرب الناس دائماً والتي يعتبر الضرب بها بمثابة الاتهام أو إعلان الشكوى

بدأت أنا برفع الأمر فشرحت القضية على حقيقتها وتمسكت بأن تاجر الخيل كان يريد خداعي وأنه غشني في الثمن . وطلبت رد الجواد إليّ لأرده إلى صاحبه . وقال التاجر دفاعاً عن نفسه إن شكواي باطلة لأن الجواد مسروق ولا يمكن إلزامه بدفع باقي الثمن إليّ لأني لست صاحبه، ولا يمكن أخذ الجواد منه لأنه اشتراه بحسن نية وإنما الشيء الوحيد الممكن في نظره هو أن أدفع تعويضاً لصاحب الجواد

حار مأمور البوليس حيرة شديدة في حل هذه المشكلة وقال إنها عويصة وإنه لا يستطيع الفصل فيها . ولذلك فانه يتنحى عن نظرها ويأمر بعرضها على القاضي . ولكن أحد الواقفين وهو رجل أشيب نظر إليه وقال : « لماذا تحار في قضية بسيطة مثل هذه ؟ إن الخلاف بين حاجي بابا وتاجر الخيل يحل على أن يدفع التاجر باقي ثمن الجواد . ثم يدفع حاجي بابا إلى التاجر أجرة إبقائه عنده وإطعامه في هذه المدة »

فصاح كل من سمع هذه الفتوى : « تبارك الله ! تبارك الله ! »

وسواء أكان رأيهم خطأ أو صواباً فقد بهرهم ذكاء الرجل ووافقه المأمور على ذلك .

وعلى الرغم من أن هذا الحل كان خطأ ومضحكاً فقد نفذ لأن المأمور قبله في لحظة كان عقله مختلطاً فيها وأخذت الجواد بعد أن أخذت الباقي من ثمنه ودفعت للتاجر أجرة طعامه ، ثم رددت الجواد للفلاح والسرج واللجام للساعي وكانت الخسارة كلها على التاجر والمكسب كله لي

الفصل السابع عشر

عامي بابا يبدأ عهداً جديداً في الحياة

حمدت الله على خلاصي من هذا المأزق واستأنفت

سيرى إلى سوق الثياب لأشترى منه ثوباً غالياً تنفيذاً للخطة التي رسمتها .

ولما وصلت لأول حانوت طلبت جبة حمراء من الجوخ الثمين لأنني كنت دائماً أشعر بالاحترام لمن يلبسون مثل هذه الجبة فنظر إلى البائع من رأسي إلى قدمي : « لمن تريد هذه الجبة ومن الذي سيدفع ثمنها ؟ »

فساءني هذا السؤال وقلت : « لماذا ؟ أريدها لنفسي وأنا الذي سأدفع الثمن ؟ »

فقال : « ولماذا يلبس مثلك مثلها ؟ إنه لا يلبس الجوخ الأحمر غير الميرزا أو الخان ولا شك عندي أنك لست أحدهما »

كاد الغضب يتملكني فأهينه لولا أن دلالاً مرّ في هذه اللحظة من أمامي ومعه ثياب من جميع الأنواع ، ولكنها مستعملة فذهبت إليه وبالرغم من أن صاحب الحانوت أخذ يدعوني لأنه ندم على إبعادي عنه بالوسيلة التي اتبعها .

ومشيت مع الدلال إلى ركن من الطريق بالقرب من باب المسجد وجلس على الأرض وأخذ يعرض عليّ مامعه من الثياب، فأعجبني ثوب حريري مزركش بالذهب وبه زرائر ذهبية . ولما سألته عن ثمنه أقسم لي أن الثوب كان لنديم من ندماء الملك وأنه لم يلبسه إلا مرتين فقط . ولأجل أن يغريني بشرائه وضع هذا الثوب عليّ وأخذ يدور حولي ويقول : «ماشاء الله ! ماشاء الله ! » فعزمت على شراء الثوب وطلبت منه شالا من الكشمير لأجعله حزاماً فقدم لي شالا قديماً به كثير من الثقوب وأقسم أنه كان مملوكا لسيدة من سيدات القصر الملكي . وقال إنه سيبيعه بثمن زهيد . فأخذت الشال وجعلته حول خصري محاولا إخفاء ثقوبه فلم أجد به عيباً بعدلفه، ورأيت أنه لا ينقصني إلا خنجراً أضعه في هذا الحزام فأصبح مثل سائر الوجهاء ، وطلبت من الدلال خنجراً فقدمه لي ووضعته في الحزام فأعربت عن رضاي لأني أصبحت في هذا الزي كأحسن رجل في طهران

ولما بدأ دور المساومة وجدت الأمر أصعب مما كنت أتوقع، وأخذ الدلال يقسم لي أنه شريف وأنه ليس مثل سائر الدلالين الذين يطلبون مائة ثم يبيعون بخمسين، وقال إن الثمن الذي يطلبه هو الثمن الذي لا يستطيع أن يبيع بأقل منه . وطلب مني خمسة طومانات للجبة وخمسة عشر ثمناً للشال وأربعة للخنجر فتكون الجملة أربعة وعشرين طومانا

لما سمعت ذلك أسفت لأنه لم يكن معي غير عشرين طومانا فقلت له إني لا أريد الشراء ونزعت ثيابه وأخذت ألبس ثيابي فاستمهلني الدلال قائلا: « إذا كنت استكثرت الثمن فكم تريد أن تدفع ؟ »

قلت إنه لا يريد أن يبيع على ما يظهر وإنني لن أدفع أكثر من خمسة طومانات. فرفض البيع بهذا مظهراً لي أشد احتقار ، ورددت إليه الثياب فأخذ يطويها وظهر أن المساومة انتهت بيننا عند هذا الحد ولكن الرجل نظر إلي وقال : « إنني أشعر بمودة نحوك وسأبيع لك بما لا أقبل أن أبيع به لأخي فادفع عشرة طومانات » . فرفضت وأصررت على الثمن الذي عرضته . وأخذ يقلل من مقدار ما يطلبه حتى اتفقنا في النهاية على ستة طومانات فدفعتها له وأخذت الثياب

كان أول غرض لي بعد أن اشتريت أن أذهب إلى الحمام فذهبت إليه . وفي أثناء الطريق اشتريت

حذاء أخضر وقميصاً أزرق وسروالا قرمزياً ووضعت ذلك كله فى منديل واستأنفت سيرى إلى الحمام

لم يلتفت أحد إلى ساعة دخولي لأن رجلا مثلى فى الثياب التى كانت لا تزال على لا يستثير اهتمام الناس . وكنت أعزى نفسى بأن هذه الحالة لاتلبث إلا ريثما أغير هذه الثياب بثيابى الجديدة وأن الناس فى داخل الحمام لا يتفاضلون تفاضلهم فى الطرقات بل تفاضلهم فيه بطول القامة وعرض الأكتاف ومظاهر القوة والشباب . وكنت فى ذلك أفضل الموجودين فى الحمام ونلت إعجاب من لو رآنى فى الطريق لازدرانى . واستدعيت دلاكين لتدليكى فوقفا بالقرب منى ينتظران أوامرى، فأمرت أحدهما بحلاقة رأسى وبأن يصبغ شعر لحيتى وشاربى

ولما بدأ فى التدليك أخذ يكرر إعجابه باتساع صدرى ، وحملنى تخيلى الحالة التى سأكون عليها بعد أن ألبس الثياب الجديدة على التظاهر بأننى تعودت سماع الثناء والاصغاء إليه . وقال لى الدلاك إننى جئت فى ساعة سعيدة لأنه فرغ لساعته من خدمة خان كبير يلبس خلعة أنعم بها عليه الشاه وأن هذا الخان لم يأت إلى الحمام إلا بعد أن أخبره المنجمون بأن هذه ساعة مباركة تناسب الاستحمام

وبعد أن فرغت من الاغتسال والتدليك ذهبت إلى الغرفة التى فيها ثيابى فلبست جديدها وطويت القديم . وكان الزهو يكاد يقتلنى كلما وضعت على جسدى قطعة منها

وأخيراً جاء الدلاك بالمرآة وهذا هو الرمز عندهم لانتهاء عملهم ومطالبتهم بالأجر فرجلت شعرى ورفعت طرفى شاربى إلى عينى ودفعت له الأجر بسخاء، وخرجت أمشى مشية الرجل الكبير الأهمية

الفصل الثامن عشر

عسكر خان يعود من الأسر — موقف ماجى بابا

مشيت توا إلى بيت عسكر خان فرأيت وأنا فى أول الطريق إليه جمهوراً كبيراً محتشداً عند بابه وعلمت أنه وصل لساعته ، وأنه دخل البيت من النافذة بدلا من الباب فى وسط احتفال لأن هذه هى العادة عند مايرجع إلى منزله رجل كان المظنون أنه قد مات

زججت بنفسى بين الجمهور ودخلت إلى الغرفة التى كان الشاعر موجوداً بها وهنأته بوصوله سالماً فى أحر لهجة ودية ، ولكن الشاعر لم يعرفنى فعرفته بنفسى ولم يكد يصدق أن الرجل الذى أمامه الآن فى أجل ثياب وأرقاها هو ذلك الوغد القذر الثياب الذى كان معه فى أسر التركمان

وكانت الحجرة مزدحمة بالناس من جميع الطبقات، وكان بعضهم فى نهاية السرور بعودته سالما والبعض فى نهاية الحزن لهذا السبب . وكان من الفريق الأخير « ميرزا فاظل » ولكنه كان من أكثرهم ترحيباً به وإظهاراً لمودته . وقال له: « لقد كان مكانك شاغراً وكانت عيوننا متشوفة إليك

ثم حدثت ضجة بالمكان وفتح الباب ودخل ضابط مندوب من قبل الشاه وأمر عسكر خان بأن يلبس الثياب التى جاء بها من السفر ويذهب إلى الشاه . فتفرق الموجودون وذهبت فى جملة الذاهبين وفى عزمى أن أعود فى اليوم التالى، وفى طريقى قابلت ناظر الزراعة فقلت له : « هل رأيت أن كلامى كان صادقاً وأن عسكر خان لم يزل على قيد الحياة .

فأجابني : « نعم لقد صدقت فهو لا يزال على قيد الحياة ولكن الله كبير » ثم كرر الجملة الأخيرة مراراً وتركني وقد بدا عليه أنه يشعر بالبؤس والحزن الشديدين . وأمضيت يومي كما يقول المثل في تشييد قصور في الهواء . وجبت الأسواق لمابنة ماعزمت على شرائه بعد أن تتحقق أحلامي ودخلت المساجد لأداء الصلاة والدعاء لله أن يوفقني إلى تحقيقها .

وفي أحد المساجد وجدت كثيرين ممن لاعمل لهم ولا شاغل يشغلهم غير التساؤل عن أخبار الناس والتحدث بها وقد سمعتهم يتكلمون عن عودة الشاعر عسكر خان وعن المقابلة التي قابله بها الشاه فقال البعض : إن جلالته قال عند ما سمع أنه لا يزال على قيد الحياة إن شاعره قد مات وإن الذي يدعي هذه الدعوى لا يمكن أن يكون إلا كاذباً وإن جلالته سيعاقبه على ذلك . وقال البعض إن جلالة الشاه لم يقل ذلك وإنه أعرب عن سروره بعودة شاعره وأعطى لمن بشره بهذا الخبر عشرة تومانات . ولكن الكثرة كانت متفقة على أن جلالته لم يسر بعودة عسكر خان لأنها ستخل بالنظام الذي كان قد وضعه لتقسيم تركته

ولكن عسكراً كان يعرف حب مولاه للشعر فنظم قصيدة بديعة وصف بها حالته في الأسر ومدح الملك بما لم يمدح به ملك من قبله، وإن الشاه سمع منه هذه القصيدة فطرب كل الطرب وأمر بأن يملأ فوه ذهباً وخلع عليه خلعة سنية

لما سمعت الخبر الأخير خرجت من المسجد لأهنئ الشاعر وأنال جائزة منه على هذه التهنئة . وقد وجدته ضاحكا مستبشراً ورأيت من عطفه على وإيناسه إياي ما شجعني على أن أطلب منه تعييني في خدمته أو التوسط لدى واحد من معارفه لأشتغل لديه ، وشرحت له حالتي بالتفصيل وذكرت له كل الحوادث التي حدثت لي . وقد استكشفت أن سبب اضطراب ناظر الزراعة عندما علم بعودة سيده هو أنه بدد كثيراً من أمواله عند ما اعتقد أنه قد مات . ورجوت أن أنال عمله ، فأخبرت الشاعر بكل ما سمعته عن هذا الناظر الخائن ، ولكنني مع الأسف لم أنجح فيما كنت أريده إما لأن الشاعر لم يثق بقولي وإما لأن الناظر استطاع إقناعه بأنه بريء. وبقي الرجل في عمله وبقيت منتظراً ما يجود به عليّ صاحبي في الأسر صدقة وإحساناً .

وأخيراً طلبني عسكر خان في صباح يوم من الأيام وقال لي : « حاجي بابا، أيها الصديق ، تعرف مقدار ما أجنه لك من الشكر على ما لقيته من عطفك وكلانا واقع في أسر التركمان وقد آن الوقت الذي يجب فيه عليّ إظهار عرفاني للجميل ، لقد تكلمت بشأنك مع ميرزا احمد « حكيمباشي » رئيس أطباء الشاه وذلك بمناسبة ما علمته من احتياجه إلى تابع . ولا شك أنه إذا وجد فيك ضالته فانه سيعلمك صناعته فتجد الطريق المؤدي إلى الغنى فاذهب إليه وقل له إنك أنت الرجل الذي حدثته عنه فانه سيغنيك في الحال »

لم أكن ميالا من قبل لمزاولة الطب وذكرت القصة التي سمعتها من الدرويش فشمرت نحو الأطباء باحتقار شديد . ولكن حالتي كانت حالة اليائس لأنني كنت قد أنفقت آخر دينار مي . ولم يعد أمامي غير أن أقبل أي عمل حتى ولو كان حرفة الطبيب .

وفى اليوم التالى ذهبت إلى منزل (الحكيمباشى) وهو مجاور لقصر الشاه ودخلت حديقته الواسعة المهملة فوجدت فيها على الجانبين غرفاً بها أسرة المرضى ووجدت غرفة كبيرة أمامها أناس كثيرون فعلمت أنها غرفة الطبيب . وبقيت منتظراً عند بابها حتى يأتى دورى فيؤذن لى بالدخول

ولم يكن كل المنتظرين من المرضى بل كثير منهم من أصدقاء الطبيب أو أصدقاء أصدقائه ، وقد جاءوا لأمور عادية لا شأن لها بحرفته . والعادة فى البلاد الفارسية أن يستقبل الأطباء أصدقاءهم فى أوقات عملهم وأن يقدموا مقابلاتهم الشخصية على مقابلات المرضى . وفضلا عن ذلك فان موظفى القصر الملكى كانوا يدخلون حجرة الطبيب بغير استئذان ويطيلون المكث فيها والمرضى فى انتظار خروجهم عند الباب

كان هذا الطبيب متقدماً فى السن ، عيناه غائرتان فى وجهه ، وعظام وجهه كبيرة ، وشعرات لحيته ورأسه قليلة . وكان محدودب الظهر من كبر السن قليل الكلام يبادر مريضه بأسئلة قليلة متناهية فى الاختصار والايجاز ، ويظهر الاشمئزاز إن كان الجواب طويلا ، وكان يبدو على وجهه أنه يفكر فى كل شىء إلا الشىء الذى يكون أمامه

ولما جاء دورى أخبرته بأنى أنا الذى كلمه الشاعر من أجلى فحدد فى نظره لحظة قصيرة ثم أمرنى بالانتظار لأنه كان يريد أن يكون كلامه معى على انفراد . وبعد أن انتهى من عمله مع الناس نادانى فذهبت معه إلى غرفة ضيقة ملحقة بمكتبه وهى التى يدعونها « الخلوة »

الفصل التاسع عشر

مامبى بابا يصير تابعاً لطبيب الشاه

جلس الطبيب وأمرنى بالجلوس فجلست مظهراً ما يجب إظهاره من الاحترام والرهبة عندما يتشرف حقير مثلى بإكرام عظيم كطبيب الشاه . وقال لى إن الشاعر كلمه فى شأنى ، وقال إننى رجل يمكن الاعتماد عليه . وإننى قوى صبور وإننى جربت تجاريب كثيرة فى الحياة وإن لى اقتداراً خاصاً على كتمان الأسرار .

طأطأت رأسى مراراً وهو يكلمنى وكنت شديد الحرص على ألا تظهر قدماى فأخفيتهما تحت طرف الثوب واستمر الطبيب يقول : « وما دامت هذه صفاتك فستكون حاجتى إليك كبيرة . وليس يصلح لخدمتى من لم تتوافر فيه صفة من هذه الصفات . وأنا واثق بما يقوله عسكر خان ، فاذا رهنت أنك عند ظنه فيك فستجد عندى فوق ما ترضيك » ثم أدنانى منه وقال لى بصوت خافت كأنما يخشى أن يسمعه إنسان : « لقد جاء أخيراً سفير من أوربا وفى حاشيته طبيب كبير وقد نال هذا الكافر شهرة واسعة وهو يعالج مرضاه بطريقة جديدة علينا . وليس فى وسعنا أن نتعلمها الآن . وجاء بصناديق مملوءة بعشرات الأدوية التى لا نعرف أسماءها ، وهو يدعى أنه يعرف أشياء يجهلها جميع الأطباء الفارسيين ، ولا يفرق بين الأمراض الحارة والأمراض الباردة ، ولا بين الأدوية الحارة والأدوية الباردة . وهو لا يتبع نظريات جالينوس وابن سينا بل يقول إن علمهما قد أصبح الآن علماً قديماً . وأغرب من ذلك أنه يدعى المقدرة على منع مرض

الجدرى يجرح يحدثه في الذراع ويضع مادة فيه يقول إنه يستخرجها من البقر . ونحن لا نريد أن نسمح له بأخذ القوت من أفواهنا ومزاحمتنا فى حرفتنا وفى بلادنا . ومن أجل ذلك أشعر بحاجة كبيرة إلى مساعدتك

ولقد مرض رئيس الوزارة منذ يومين بعد أن أكل مقداراً كبيراً من الخس والخيار . وأنا لم أعرف مرضه . وعلم السفير بمرضه فأرسل إليه طبيبه . ولكن كان بين رئيس الوزارة وبين السفير عداوة على ما يظهر لأن السفير يلح فى طلب امتياز سياسى لدولته ويرى رئيس الوزارة أن فى إجابة ذلك الطلب مساساً بمصالح فارس، فرفضه وغضب السفير من الرفض ، ويظهر أن هذا المرض جاء فرصة مناسبة للصلح بين شخصيهما بغض النظر عن موضوع الخلاف فأرسل السفير الطبيب مجاملة . ووجب على رئيس الوزارة أن يجامله كذلك بألا يرد الطبيب . ولو أننى علمت بهذا الأمر فى الوقت المناسب لاحتلت بأية حيلة لمنعه ، وقد سمعت أن هذا اللعين قد أعطى رئيس الوزارة قطعة واحدة من دواء أبيض عديم اللون والرائحة فخففت ألمه . وكان تأثيرها قوياً عجيباً وقد دهش رئيس الوزارة حتى صار لا يتحدث إلا عن قدرة هذا الطبيب . وتسامع كل أهل القصر بذلك حتى إن الشاه نفسه أظهر دهشته وإعجابه ، واستدعى رئيس الوزارة ليقص الأمر على مسمعه . وكنت موجوداً فى ذلك الوقت . فأمرنى الشاه أن أبين ما أعرفه عن هذا الدواء وعن العلة، فبذلت كل ما فى وسعى لإخفاء اضطرابى، وقمت فقبلت الأرض بين يدى جلالته وقلت : « إن نفسى فداك يامليك الملوك ! إننى لم أر ذلك الدواء الذى أعطاه الطبيب الكافر لدولة الوزير ، ولكننى متى رأيته أخبرت جلالتكم عن عناصره . ولكننى أقول منذ الآن إن المرض كان سببه تلبس الشيطان بجسم الوزير بدليل أن الشفاء جاء على يد طبيب كافر لا يصدق بديننا ولا يؤمن بنبينا

قلت ذلك لكى أزعزع الثقة التى نالها هذا الطبيب، ولكننى كنت فى نفسى شديد الرغبة فى معرفة الدواء الذى استعمله . وأنت قد جئت لحسن الحظ فى الوقت المناسب. وسأعتمد عليك فى مساعدتى. والذى أريده منك هو أن تتصل به وتخدمه حتى تأخذ عنه علمه . ولكنى أريد قبل كل شئ وفى أقرب وقت أن تعرف لى الدواء الذى أعطاه لرئيس الوزارة لكى أخبر الشاه عنه . اذهب الآن إلى السوق فاشتر خساً وخياراً وكل منهما مقداراً كبيراً وتعارض إن لم يصبك المرض حتى يبدو لمن يراك أنك صرت بالحالة التى كان عليها الوزير واستدع الطبيب الأوربى فانه سيعطيك نفس الدواء الذى أعطاه للوزير فلا تتجرعه ولكن جئنى ثم تناوله بعد أن أفحصه

أزعجنى هذا المشروع الخطر فقلت : « إننى سأتبع كل ما تشير به ولكننى أخشى ألا يقبل علاجى ولا تستطيع أنت أن تداوينى أو أن يكون الرجل ذكياً فيعطينى دواء آخر، وقد سمعت أعاجيب عن الأطباء الأوربيين ، ومع ذلك فدلنى على الطريقة التى أصل بها إليه »

فقال : « إن عوائد هؤلاء القوم وأخلاقهم تنافى عوائدنا وأخلاقنا منافاة تامة . وسأخبرك بشىء عنهم يعطيك فكرة عن مقدار التناقض بيننا وبينهم . إنهم بدلا من أن يحلقوا رءوسهم ويطلقوا لحاهم وشواربهم — كما نفعل نحن — يحلقون اللحى

والشوارب ويتركون شعر رؤوسهم نامياً كالنساء ولا يأكلون بأيديهم كما نفعل نحن بل يأتون بقطع من الحديد لها عدة أطراف محدودة وينقلون بها الطعام من الأطباق إلى أفواههم غير مبالين بأن يجرحوا ألسنتهم أو شفاههم ، وهم لا يخجلون من لبس ثيابهم الضيقة التي تظهر كل جزء من أجسامهم كأنما أحدهم يمشي عارياً في الطريق ، وهم لا يصلون خمس صلوات في اليوم مثلنا ولا يرون في تركهم الصلاة إثماً ولا معصية . وصفوة القول أن كل شيء عندنا مخالف لكل شيء عندهم ، وهم أقذر ناس خلقهم الله لأنهم لا يعرفون النجس من الطاهر ، فهم يأكلون لحم الخنزير ويشربون الخمر ويدفنون الميت دون أن يغسلوه ليطهر ويغسلون كل شيء ولا يطهرون بعده أجسامهم بالماء »

قلت : « نعم لقد سمعت أن كل ذلك من صفاتهم وسمعت أيضاً أنهم حمق فاذا أظهرت لأحدهم الشك في قوله أو قلت إنه كاذب حاربك من أجل ذلك حتى يقتلك أو يموت »

فقال الطبيب : « هذه أيضاً إحدى الصفات التي سمعتها عنهم وأحذرك في معاملتهم من شيء هام وهو إياك أن تقول لأحدهم على سبيل المجاملة كما يقول أحدنا للآخر : « هذا الشيء لك أو هو تحت تصرفك » فانه سرعان ما يعاملك بقولك فيأخذه ، فهم لا يعرفون هذه المجاملات ، ولا نقل لهم إلا الحقيقة فان ذلك يلائم طباعهم »

قلت : « إذا كان هذا شأنهم فهل تظن أن الطبيب سيغفر لي كذبي عليه واستدعائي إياه لكي يعالجني من المرض وأنا لست مريضاً ؟ »

فقال الطبيب : « كلا ياحاجي بابا ، إنك ستكون مريضاً بالفعل ، فاذهب في الحال وكل أكثر ما تستطيع أكله من الخس والخيار وهات لي الدواء الذي سيعطيه لك في هذه الليلة »

ثم منعني عن الاستمرار في مناقشته فأمسك بيدي وأخرجني برفق من حجرته فخرجت وأنا لا أعرف هل أضحك أم أبكي من هذا الاتجاه الذي اتجهت حياتي فيه ومن اضطراري إلى استدعاء المرض لنفسي دون أن أعرف ماذا يكون أجري على تحمل آلامه

وبعد أن ابتعدت عن حجرة الطبيب وقفت وحدثتني نفسي بأن أعود إليه وأساومه على الأجر ولكنني لما عدت إلى الحجرة لم أجده فيها ، ويظهر أنه صعد إلى منزله ، فاضطررت إلى الذهاب حيث وجهني

الفصل العشرون

حامي بابا يخدع طبيبين

سألت عن منزل السفير وأنا أنوي أن أنفذ ما أشار به الطبيب ولكنني كنت أعتقد أن أكل الخيار والخس وإن أثر في معدة الوزير الهرم فلن يؤثر في معدة قوية لشاب مثلي

على أنه لم يكن أمامي بد من الحصول على دواء الطبيب الأوربي بأية حيلة ، وقلت لنفسي إنني إذا ادعيت المرض فان هذا الطبيب سيعرف الحقيقة ويطردني من منزله فقضلت أن أزعم أنني خادم لحرم الشاه وأختلق قصة أنال بها ما أريد . وعرجت على حانوت لرجل يبيع الثياب فاستأجرت منه ثوباً كالثياب التي يلبسها في العادة خدم القصر الملكي وتصنعت حالة تدل على أنني لست خادماً عادياً بل من رؤساء الخدم ، وتذكرت ما قاله لي ميرزا أحمد

فاقتربت من باب السفير وأنا خائف متردد

وجدت القسم الذى يشغله الطبيب فى منزل السفير مملوءاً بالنساء الفقيرات وكل واحدة منهن تحمل طفلا على ذراعيها، وقيل لى: إنهن جئن ليفصدن الأطفال وقاية من الجدرى . ويظهر أن أسباباً سياسية حملت السفير وطبيبه على التطوع لخدمة الطبقات الفقيرة فى إيران

لما دخلت الغرفة وجدت رجلا فى وسطها أمام منضدة خشبية عليها أكداس من الكتب وآنية فيها المادة التى يستعملها فى التطعيم وكانت ثيابه مثل الثياب التى وصفها لى ميرزا أحمد والتى رأيت بعض الأوربيين يرتدونها

وكان حاسر الرأس مما يدل على عدم احترامه الناس، وحول رقبته قطعة من القماش كأنما يريد أن يخفى مرضاً بها . وثيابه شديدة الالتصاق بجسده خصوصاً الجزء الأسفل من ثوبه لأن شكله فيه كان غير لائق ، وهو مناف كل المنافاة للآداب . وكان حذاؤه فى قدميه فلم يخلعه ولم يبال بالسجاجيد الثمينة التى هو واقف فوقها على، النقيض منا نحن الفارسيين فاننا نخلع الحذاء فى داخل الغرف

وجدت هذا الطبيب يتكلم بلغتنا وسألنى ساعة رآنى بتلك اللغة عما أريده، فوجدت الواجب يقضى بتجميل الرد جهد الطاقة فقلت له : إن شهرته قد انتشرت فى جميع البلاد الفارسية بأنه لقمان زمانه . وأن ليس فى هذا العصر من يضارعه أو تحدثه نفسه بمنافسته

فلم يجبنى بحرف عما قلته ، ويظهر أيضاً أنه لم يطرب من هذا الثناء كما يطرب أحدنا عندما يسمع مثله . وقلت له : إن الملك نفسه علم بتأثير دوائه فى نفس الوزير وأمر مؤرخيه بأن يقيدوا فى تاريخ البلاد هذا الحادث على اعتبار أنه من أعجب الأشياء الخارقة للعادة فى مدة حكمه ، وإن سيدات القصر سمعن باسمه فقلن إنهن لن يتداوين عند غيره إن مرضن، وإن جاريته الشركسية مريضة بالفعل وإن « الأغا باشى » أرسله بأمر خاص من جلالة الشاه لكى يحصل على دواء مماثل للذى أخذه الوزير . وختمت قولى بطلب هذا الدواء

ظهر لى أن الطبيب أخذ يفكر فيما سمعه منى وقال لى بعد مدة وجيزة: إنه ليس من عاداته أن يصف دواء لمريض لم يره لأن ذلك قد يكون أكثر ضرراً للمريض من عدم العلاج بتاتاً ، وإنه على استعداد لمعالجة الجارية إن سمح له برؤيتها . فأجبته على ذلك بأن رؤية أوجه السيدات ممنوعة قطعاً ، وأنه عند الضرورة القصوى يسمح بجس النبض دون رؤية الوجه على شرط أن تكون اليد مستورة برداء

قال لى الطبيب إنه لا يستطيع معالجة المريض بجس نبضه فقط بل يجب أن يرى لسانه أيضاً .

فقلت له : إن رؤية ألسن السيدات أمر لا عهد لنابه فى البلاد الفارسية ، وإن تحقيق هذا الشرط يستدعى صدور أمر خاص من الشاه ولكن الذى يعرض أمراً كهذا على جلالته يعرض لسانه للقطع عقاباً على جرأته .

قال لى الطبيب : « تذكر إذن أننى إذا أسلمت لك الدواء فانما أسلمه على شرط ألا أتحمل مسئولية من تأثيره لأنه قد يقتل بدلاً من أن يشفى » فلما أكدت له أن ليس هناك مجال للخوف فتح صندوقاً كبيراً مملوءاً بالعقاقير وأخرج ذروراً أبيض وضمه فى غلاف أبيض صغير ودفعه إلى فسألته عن نوع هذا الدواء وعن تأثيره، فقال لى بغير التحفظ الشديد الذى يبديه أطباء فارس — كل الذى أردت أن أسمعه . ولو كان المسئول طبيباً فارسياً لما فهمت من كلامه غير أسماء أبقراط وابن

سينا ولقمان ، لكثرة ما يلجأون فيه من الابهام والغموض .

ولما وعيت ما قاله شكرته ورجعت فى الحال إلى ميرزا أحمد طبيب الشاه وقد كان ينتظر عودتى بصبر نافد، وتظاهرت بأنى مريض لأوهمه أنى أكلت الخيار والخس وأنى بسبب ذلك مرضت كما مرض الوزير فتأثر الطبيب الفارسى من رؤيتى وأظهر لى ما يشبه الشفقة .

قلت له بألفاظ متقطعة كالمريض الذي أشرف على الوفاة : « لقد دخلت عيادة ذلك الطبيب واتبعت أوامرك فأنجدنى وأنا منتظر كرمك »

فحاول ميرزا أحمد أن يحصل منى قبل كل شىء على الدواء الذى أتيت به ولكننى قبضت يدى وتركته يفهم أنى أنتظر جزاء سريعاً وأنى مصمم على ابتلاع الدواء لأشفى من مرضى إذا لم يعجل بمنحى ما أستحقه من التعويض

وكان خوفه شديداً من عدم الحصول على الدواء وعجزه تبعاً لذلك عن إجابة الشاه على ما سأله عنه فقدم لى قطعة من النقد الذهبى وتلطف معى ليحصل على هذا الدواء أكثر مما يتلطف عاشق أمام حبيبته . وأردت أن أزيد فى التصنع حتى أحصل منه على قطعة ذهبية أخرى ولكنى رأيت الطبيب يجهز لى دواء ليشفينى من المرض الذي أتظاهر به وخشيت من دوائه ، فلت إلى الانتهاء من تمثيل هذا الدور وتركت له الدواء .

فلما أخذه نظر إليه باهتمام شديد وقلبه بين يديه وظل كذلك مدة طويلة دون أن يبدو عليه أنه عرف شيئاً عنه فقلت له: إن الطبيب الأوربي أخبرنى عن المادة التى صنع منها الدواء وعن طبيعته وتأثيره . فأصغى إلى باهتمام شديد ثم قال : « كأنى كنت ناسياً كل هذه الأمور الأولية التى تعلمتها فى أول عهدى بمدرسة الطب »

وكان فى جملة ما قلته له : إن الزئبق يدخل فى تركيب هذا الدواء

فقال : « وهل يريد هذا الكافر اللعين أن يسمم أجسامنا بالزئبق ويضيع بهذا الجهل شهرتى الواسعة التى لم يحلم بمثلها أبوه ؟ إن الزئبق بارد والخس والخيار باردان أيضاً، فهل الثلج يذيب الثلج؟ إننا لا نعالج الأمراض الباردة إلا بأدوية حارة والعكس بالعكس ، وهذا الحمار لا يعرف المبادئ الأولية فى علم الطب فيجب ألا نسمح له بالضحك على ذقوننا بهذا الشكل »

وقبل أن يتمم ملاحظاته جاء رسول من قبل الشاه يدعوه إليه، فأسرع فى لبس الثياب التى يقابل بها جلالته وأخذ معه الدواء وذهب مسرعاً مع الرسول

« يتبع » عبد اللطيف النشار

المجموعة الأولى

للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروش، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة فى جزءين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

« طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى – عابدين »